كتاب تحفة الأذكياء بأخبار بلاد الروسيا للطنطاوي دراسة نقدية

أ. م. د. علاء عبداللطيف النجار

مقدمة

مثّل الشيخ محمد عياد الطنطاوي المولود في إحدى القرى التابعة لمدينة طنطا (١٨١٠ – ١٨٦١م)(١٢٢٥- ١٢٧٨ه) جسرا مهما من جسور الثقافة التي امتدت لتصل بين الشرق والغرب، وتسترفد ثقافة الغرب ليفيد منها الشرق، لكن هذا العالم الأزهري لم يحظ بشهرة أقرانه أمثال رفاعة الطهطاوي وغيره ؛فوجهته التي ولى شطره نحوها لم تكن إلى بلدان أوربا الغربية أو أمريكا، بل كانت إلى بطرسبرج بروسيا التي لم تحظ بالاهتمام التي حظيت به فرنسا وغيرها من البلدان الغربية، لكن كتابه (تحفة الأذكياء بأخبار بلاد الروسيا) ظل معلما مهما يتناول كل ما يتعلق بأوجه الحياة الاجتماعية، والسياسية، والعسكرية، في روسيا في القرن التاسع عشر، وقد قسم كتابه إلى ثلاثة أبواب، حرص في مقدمته على توضيح البواعث التي دعته إلى تصنيف كتابه، ثم تناول في الفصل الأول نشأة الروس وولاية نوفغورد، ثم تحدث في الباب الثاني عن تاريخ بطرسبرج الجغرافي، والجيولوجي، والبشري، وتناول في الباب الثالث عادات الروس، وأخلاقهم، وملابسهم، ودينهم، وعادات الزواج، ودور المرأة في هذا المجتمع وغير ذلك.

وتجدر الإشارة إلى أن هذا الكتاب لم يحظ بالدراسة المفردة قبل ذلك بل أشارت إليه بعض الدراسات التي تناولت حياة الطنطاوي ومؤلفاته، ومن أبرزها ما كتبه أحمد تيمور باشا١، والمستشرق الروسي أغناطيوس كراتشكوفسكي٢، وغيرهما، ومن هنا جاءت أهمية دراسة هذا الكتاب دراسة نقدية تحليلية تهدف إلى التعريف بالمؤلف ومكانته، وتتناول هذا الكتاب بالتحليل والدراسة من حيث منهجه، وبيان أهميته، والدراسات التي تناولته، وأوجه التشابه بينه وبين كتب معاصريه، أما المنهج المتبع في البحث؛ فهو المنهج الوصفي التحليلي، الذي يقوم على سبر أغوار هذا الكتاب، ووصف وتحليل أهم ظواهره وموضوعاته، والقضايا التي تعرض لها، وتحليل أساليبه البلاغية، ويجيب هذا البحث على التساؤلات الآتية: من هو الشيخ الطنطاوي؟ما أهمية كتابه تحفة الأذكياء بأخبار بلاد الروسيا ؟ما أهم الموضوعات التي تعرض لها الكتاب ؟ ماأهم القضايا البلاغية التي ناقشها وكيفية تناولها ؟

وقد قسمت هذه الدراسة إلى مقدمة وثلاثة فصول، اشتملت المقدمة على الأسس المنهجية للبحث: بيان أهمية الموضوع، الأهداف، أسباب الاختيار، المنهج المختار، مكونات البحث، ثم تناولت في الفصل الأول التعريف بالمؤلف والتعريف بالكتاب ومنهجه فيه، وفي الفصل الثاني دراسة تحليلية له ولأهم موضوعاته، وفي الفصل الثالث تحليل الأساليب البلاغية والصور البيانية في الكتاب، وجاءت الخاتمة لتتناول أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة.

الفصل الأول

مولدالشيخ الطنطاوي٣ونشأته:

في قرية صغيرة تسمى (نجريد) بالقرب من طنطا ولد الشيخ محمد سعد سليمان عياد الطنطاوي في عام (١٢٢٥ه - ١٨١٠م)، لأب كان يعمل تاجرا للأقمشة والبن والصابون، أصله من بلدة محلة مرحوم بجوار طنطا٤، وانتقل إلى الصافيةعند أخواله في سن الرابعة بعد سفر والداه إلى الحجاز، ثم سافر إلى طنطا في السادسة من عمره وحفظ القرآن كاملا، وحفظ متونا في النحو وفي الفقه، تلقى العلم وعمره عشر سنوات على يد الشيخ محمد الكومي والشيخ السيد محمد أبي النجا، وفي سنة (١٢٣٨ه)رحل إلى القاهرة في سن الثالثة عشرة، وجاءه نعى والده بعد خمس سنوات من إقامته بها في سن الثامنة عشر، وقد حزن عليه حزنا شديدا واضطربت نتيجة لذلك أحواله المادية ؛فاضطر إلى التوقف عن الدراسة والبحث عن أساليب العيش التي تضمن

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

له سبل العيش الكريم٥، تعرف إلى عديد من الأجانب الذين كان لهم اهتمام بعلوم العربية أمثال وائل النمساوي، وبورنير الحكيم، وبيرون، وغيرهم، وذلك نتيجة لعمله في تعليم العربية للأجانب المقيمين في مصر من خلال مكتب الإنجليز٦، وأكثرالأجانب تأثيرا فيه كان فرين الذي كان يعمل في السفارة الفرنسية بالقاهرة ثم قنصلا في جدة، وإليه يعزى الفضل في تقوية الشيخ الطنطاوي في العلوم الأدبية كما أشار إلى ذلك الشيخ الطنطاوي نفسه٧؛فقد كان مهتما بدراسة التراث العربي اهتماما كبيرا، جريا على نهج المستشرقين في ذلك الوقت الذين كانت قبلتهم القاهرة، وكانوا يقبلون على هذا تحقيقا لأهداف دولهم الاستعمارية في الشرق، وترجح بعض المصادر أنه كان على صلة برفاعة الطهطاوي(١٨٠١- ١٨٧٣م) الذي كان معاصرا له، وأنه ربما تأثر به في كتابه وصف روسيا٨، أتقن عديد من اللغات منها الفرنسية والروسية، والتركية، والفارسية، والألمانية، والنترية٩، تتلمذ على يديه كثيرا من التلاميذ والمستشرقين من أبرزهم ردولف فرين، ونيقولا موخين الذي رافقه بعد ذلك في رحلته إلى روسيا عام (١٨٤٠م)١٠، بدأ محاضراته في بطرسبرج منذ ذلك الوقت، ولم يعد إلى مصر سوى مرة واحدة بعد أربعة أعوام زار خلالها القاهرة وطنطا وحرص على جمع واقتناء بعض المخطوطات الشرقية، وكانت له بعض المؤلفات منها، أحسن النخب في معرفة لسان العرب، إصلاح تحريف كتاب الإيضاح في شرح سقط الزند لابن الخطيب التبريزي، كتاب (الانتخابات) انتخبه من مجموعة كتب أدبية تراثية، بغية المريد على رسالة التوحيد، مسودات لتاريخ العرب، ترجمة الطنطاوي بخطه، وغير ذلك من الكتب، كما نظم أشعارا وكتابا في البديع، وآخر في أسماء البشر والخيل و ثالث في الصرف والبلاغة١١، يقول كراتشكوفسكي عن طريقته في التعليم: (كان يدرس في بادئ الأمربااللغة الفرنسية التي تعلمها على يد تلاميذه الأوربيين في مصروعندما عين أستاذا في الجامعة سنة ١٨٤٧كان قد عرف اللغة الروسية نوعا ما، وقد عين أستاذا في الجامعة الروسية عام(١٨٤٧م) وظل منتظما في التدريس قرابة خمسة عشر عاما بعد ذلك إلى أن أحيل إلى التقاعد عام (١٨٦١م) وتوفى في العام نفسه)١٢، ولم تتأثر عقيدته أو دينه بشئ من حياته في هذه البلاد، وقد ذكر ذلك في أول قطعة شعرية أرسل بها إلى أحد أصدقائه في مصر، يقول في افتتاحيتها:

أنا بين قوم لا أدين بدينهم

أبدا ولا يتَديَّنون بديني١٣

وقد كان من أعلام القرن الثالث عشر الهجري، أخذ بحظ وافر من الأدب وكان المشتغل بالأدب من علماء الأزهر في عهده نزرا يسيرا يعد على أصابع اليد، من أبرزهم الشيخ حسن العطار شيخ الأزهر، والبيجوري، والشيخ خليل الرجي وغيرهم١٤، وجاء سفره إلى روسيا بدعوة من نظارة الخارجية لتدريس العربية في مدرسة الألسن الشرقية التابعة للنظارة المذكورة١٥، وقد ذكر كراتشكوفسكي أن (لدى الشيخ الطنطاوي مالا يقل عن خمسةعشر مصنفا منتشرة على حسب عادة ذلك الزمن في المخطوطات، وقد تضاعف عددها خلال وجوده في روسيا)١٦ويعد من أهم مؤلفاته منتهى الآراب في الجبروالميراث والحساب، الحكايات العامية المصرية، أحسن النخب في معرفة لسان العرب١٧، وكتاب (تحفة الأذكياء بأخبار بلاد الروسيا) الذي تناول فيه أوجه الحياة المتعددة في هذه البلاد وحاول أن ينقل إلينا تجاربه فيها، ولهذا الكتاب أهمية بالنسبة للآداب العربية، حيث يضيف للمكتبة العربية مؤلفا في أدب الرحلات إلى بقعة من العالم تمثل اليوم إحدى القوى الكبرى، ومهم بالنسبة للروس حيث يعكس لهم نظرة عربي تمكن من التغلغل في حياتهم ومعيشتهم أكثر من عشرين سنة١٨، وهو أول كتاب من نوعه يصدره عالم من علماء المشرقيات١٩، ولعل الذي دفعه إلى تأليف الكتاب يرجع إلى سببين:

الأول: رغبته في تحقيق ما وعد به الوالي محمد علي آنذاك في الإفادة من رحلته إلى هذه البلاد في نقل أوجه الحضارة والتقدم فيها إلى مصر من خلال كتابه بعد اتقانه اللغة الروسية ومن ثم نيل رضا محمد علي٢٠، والسبب الآخر في ظننا كان جريا على نهج رفاعة الطهطاوي في مؤلفه (تخليص الإبريز في وصف باريز) خاصة وأن بعض المصادر تشير إلى وجود علاقة تواصل بينهما، وقد أشار إلى ذلك الشيخ الطنطاوي ذاته٢١، سار الشيخ الطنطاوي على نهج الشيخ الطهطاوي ؛فقد بينت الرسالة المتبادلة بين الشيخين الطنطاوي والطهطاوي تشابه المناهج في وصف رحلتيهما٢٢؛ولذا يمكن القول بأن الطنطاوي قد تأثر في مؤلفه بكتاب رفاعة الطهطاوي، لكن هذا الكتاب لم ينل الشهرة التي حصل

عليها كتاب الطهطاوي، بل ولم يحصل الطنطاوي على شهرة الطهطاوي، ومرجع ذلك عند كراتشكوفسكي إلى عدة أسباب منها:انصرافه التام إلى مهنة التدريس التي كان من تقاليدها أنها تحول بين صاحبها وحياته العامة، وعدم اشتراكه في الحياة العامة من تأليف كتب أو العمل في صحافة كالوقائع المصرية التي أشرف عليها رفاعة الطهطاوي وغيره، كما أن حياته كانت من القِصَر بحيث لم تتح له فرصة الانتشار، ويضاف إلى ذلك سفره في سن الثلاثين إلى روسيا٢٣، ولعلنا نضيف إلى هذه الأسباب أسبابا أخرى، وهى أن الوجهة التي ولى الطنطاوي وجهه إليها كانت البلاد الروسية، في حين أن جل اهتمام محمد علي باشا كان موجها إلى الإفادة من الغرب وخاصة فرنسا، ويظهر ذلك في إرساله الوفود إليها، وأيضا في استقدامه لسليمان باشا الفرنساوي للمساعدة في تدريب الجيش المصري آنذاك، وهناك سبب ثان تمثل في استقرار الطنطاوي في البلاد الروسية حتى وفاته بل ودفن في هذه البلاد وبالتالي لم يعد إلى مصر ليفيد الآخرين بما تعلمه في هذه البلاد خلافا لما حدث مع رفاعة الطهطاوي الذي عاد بعد البعثة إلى مصر وعين مدرسا في مدرسة الألسن التي أنشأها محمد علي ونقل تجاربه إلى طلابه المصريين عبر تدريسه لهم في هذه المدرسة.

عنوان الكتاب:

تحف: التُّحْفَةُ: الطُّرْفَةُ مِنَ الْفَاكِهَةِ وَغَيْرِهَا مِنَ الرَّيَاحِينِ. وَالتُّحْفَةُ: مَا أَتْحَفْتَ بِهِ الرَّجُلَ مِنَ الْبِرِّ وَاللُّطْفِ وَالنَّفَصِ، وَفِي الْحَدِيثِ: " تُحْفَةُ الصَّائِمِ الدُّهْنُ وَالْمِجْمَرُ " يَعْنِي: أَنَّهُ يُذْهِبُ عَنْهُ مَشَقَّةَ الصَّوْمِ وَشِدَّتَهُ. وَفِي حَدِيثِ أَبِي عَمْرَةَ فِي صِفَةِ التَّمْرِ: " تُحْفَةُ الْكَبِيرِ وَصُمْتَةُ الصَّغِيرِ. ٢٤

ولم تكن كلمة(تحفة) بالجديدة حين استخدمها الطنطاوي في مقدمة عنوان الكتاب، فله حاشية على شرح العلامة الكبير برهان الدين أبي المعالي إبراهيم السقاء بعنوان (التحفة السَّنية في العقائد السُّنية)٢٥، ، كما أن كثيرا من الكتب قبل عصره احتوت هذه الكلمة ضمن عنوانها، مثل التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة٢٦، تحفة الأبرار في شرح مصابيح السنة٢٧، تحفة الحكام في نكت العقود والأحكام ٢٨، وهى كتب دينية من جهة يدرسها الأزهريون في علومهم، والأخرى أنها كتب تعليمية تدرس لطلاب العلم من جهة أخرى، والطنطاوي كما نعلم كان أزهريا تلقى تعليمه في الأزهر مثل رفاعة الطهطاوي، ومن ثم لم يكن استعانته بهذه الكلمة من قبيل المصادفة، وبقية العنوان يشي بالغرض من الكتاب، فهو يصف كل ما وقعت عليه عينه في هذه البلاد وصفا دقيقا يتخلله في كثير من الأحيان أبياتا من الشعر من نظمه أو من نظم غيره من الشعراء، ولأن (العنوان يمثل في العادة عتبة النص التي يلج من خلالها القارئ إلى داخل العمل الأدبي، ويمثل الخطوة الإجرائية الأولى التي يقدم من خلالها المؤلف عمله إلى المتلقي ويتحول إلى أداة مصاحبة له تأخذ بيده حتى لا يضل في متاهات النص فتنقطع صلته به برغم أنه داخله٢٩ فإنه جاء كاشفا لمحتوى الكتاب ويشي بما يحتويه المتن من وصف لهذه البلاد، ولم يجر فيه المؤلف على نهج الطهطاوي وغيره من كتاب هذا العصر باستخدام السجع في العنوان، وقد امتدت سيطرة العنوان إلى العناوين الداخلية سواء الرئيس منها أو الفرعي، وتكرر دال الروس في جميعها تقريبا إما لفظيا في أكثرها(سبع منها) أو ضمنيا في بعضها الآخر، ومن ثم تحقق التكامل بين العنوان الخارجي من جهة والعناوين الداخلية والمتن من جهة أخرى، دون الحاجة إلى إشارات تفسيرية من جانب المؤلف.

تقسيمه للكتاب:

يقسم الطنطاوي كتابه إلى تمهيد، ومقدمة، وثلاثة أبواب، تحدث في التمهيد عن سبب سفره إلى روسيا (وقد أتاح الله لي السفر إلى بلاد الروسيا الواسعة، وأقطارها البعيدة الشاسعة، بسبب طلب دولتها لي أعلم اللغة العربية في مدرسة الألسن الشرقية، فوافق ذلك ما عندي من الميل الحسن) ٣٠، ثم ذكر سبب تأليفه للكتاب (عند إبرام العزم على الظعن إلى هذا القطر الحسن، سألني جمع من الأصدقاء والمعارف، وجم من أهل المعارف أن أسطر في سفري هذا كتابا، أودع فيه ما يعذب مذاقا، ويطيب شرابا من بدائع البلاد، وغرائب العباد مع شذرة علمية، ونكات أدبية، وطرف استحسانية، وملح اختراعية، فأجبت السؤال، وشرعت في هذا التعليق البديع الأنيق، وسميته تحفة الأذكياء بأخبار مملكة الروسيا)٣١، ثم يتناول مدح السلطان العثماني (عبدالمجيد) في ذلك العصر جريا على عادة الكتاب وبكلام مسجوع لا يخلو من نظم قصيدة شعرية فيه على قافية الدال ومن بحر الطويل، منها:

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

لفخر بني عثمان خاقان أرضها
لحائز مجدٍ طارفٍ وتليد
سليل الأساطين الكرام وفائق
هصور طويل الباع أصيد صيد
له الله من مَلكٍ محا بحسامه
مآثر ظلم في العباد شديد٣٢

ويذكر في المقدمة سفره من مصر في يوم السبت الرابع والعشرين من محرم عام ألف ومائتين وست وخمسين من الهجرة الموافق ست وعشرين من مارس سنة ألف وثمانمائة وأربعين للميلاد٣٣ واستقبال الكونت ميدن القنصل الروسي له في الإسكندرية وإقامته عنده أسبوعا، والذي تعرف إليه عن طريق فرنيل الذي كان يطالع مع الشيخ الكتب الأدبية والتاريخية، واستطرد في وصف رحلته بعد أن ركب سفينة نمساوية التي أقلته إلى استنابول في تركيا ولم يسمح لهم بمغادرة السفينة في هذه الرحلة حتى استنابول بسبب داء الطاعون الذي كان يصيب بعض الناس في مصر آنذاك، ثم توجه إلى أزمير التركية، ومنها إلى قسطنطينية، و اتجه في سفينة روسية إلى بتربورغ ٣٤، وهو يستطرد كثيرا في وصف كل مدينة ينزل بها، من حيث طرقها، وأشجارها، وكنائسها، وكل ما فيها، مضمنا ذلك أبياتا من الشعرله أو لغيره، ثم جعل الباب الأول للحديث عن منشأ الروس وأنهم من الصقالبة ودياناتهم الوثنية، وعلاقة الزوجات بأزواجهن (ونساء الصقلب كانوا في غاية الطاعة لأزواجهن، وبموتهم يحرقن أنفسهن بطيب القلب منهن؛لأنهم في ذلك الوقت ما كانوا يدفنون الموتى، بل يحرقونهم على الخشب)٣٥، كما تحدث عن علاقاتهم التجارية مع اليونان، وقسم الباب الثاني إلى ثلاثة فصول، تحدث في الفصل الأول منها عن أصل كلمة بتربورغ (بطرسبرج) وأنها تعني بلد بطرس مؤسسها، وعن موقعها الجغرافي والجيولوجي أيضا، ووصف سهولها الخضراء، وأنهارها المتجمدة، وحرارة طقسها، ثم يصف البيت وما فيه من أثاث، ثم في الفصل الثاني تناول موقع بطرسبرج وتاريخ الحروب فيها التي خاضها الروس مع الممالك الأخرى وخاصة السويد، وأخبار القيصر (بطرس) وأعماله، وتنظيمه لشئون المدينة، وإصداره القوانين المنظمة لها، ثم وفاته في الثامن والعشرين من يناير(كانون الثاني) عام (١٧٢٥م)، وتحدث في الفصل الثالث عن خلفاء (بطرس) في الحكم، ومنهم زوجته كاترين، وحفيده بطرس، وغيرهم، وأهم أعمالهم في عمارة المدينة، أما الباب الثالث فقد جعله للحديث عن عادات الروس في حياتهم اليومية، وأخلاقهم، وملابسهم، وأعيادهم، ودياناتهم، وتقدمهم في العلوم والفنون، وقد قسم الباب إلى عشرة فصول، الفصل الأول منها في عادة الروس وأخلاقهم، وأن المجتمع عندهم ينقسم إلى سبع طبقات أومراتب، أعلاها الأعيان من أبناء الروس سواء من سبقوا القيصر بطرس، أو من حصلوا عليها بعد مجيئه، وأدناها الأرقاء الذين لا يباعون في الأسواق، بل يباعون مع الأرض في أكثر الأحيان ولا يشتريهم إلا الأعيان ٣٦، وكيف يمكن لكل طبقة أن تترقى إلى طبقة أعلى منها، كما تحدث عن منح القيصر للنياشين، وكيف أنه احترم معتقدات المسلمين التي لا تسمح بوضع صور للأشخاص فاستبدلها بصورة النسر، وجعل الفصل الثاني عن ملابس الروس عند الضباط وأرباب الأقلام وغيرهم (لكل رتبة نوع مخصوص لا يتعداه يلبسه صاحبه في الأعياد، والرواح إلى الكبار خصوصا رؤساء الشخص، وعند الذهاب إلى مجمع الأعياد)٣٧، وجعل الفصل الثالث لديانة الروس وكيف أنها كانت وثنية حتى تنصروا في زمن القيصر فلادمير، أما الفصل الرابع فقد تحدث فيه عن عاداتهم في الزواج، ومراسمه التي تتم في الكنيسة، وعدد الزوجات لكل فرد، وقيام الزوجة بدفع المهر للزوج٣٨، وجعل الفصل الخامس للحديث عن التعميد، ويوم الولادة والاسم، وكيفية الدفن٣٩، وجعل الفصل السادس للحديث عن أعياد الروس، ومنها أعياد رأس السنة، وعيد الرفاع، وعيد الفصح، وغيرها، مع ذكر عادات الناس في هذه الأعياد٤٠، وفي الفصل السابع (في الخط العمومي) تكلم عن أنواع الفنون المنتشرة عند الروس مثل التياتر(الأوبرا)، والنوبة (الموسيقى)، والرقص والذي لا يشبه الرقص عند المشرقيين (ليس إلا حركة خالية من الفحش بالكلية، فهو في الحقيقة لعب لتسلي الحاضرين)٤١ وغير ذلك من الفنون الأخرى٤٢، وجعل الفصل الثامن (في تقدمهم في العلوم والفنون)، وفيه تحدث عن المدارس، وأكاديميات العلوم، والتصوير، والطب، كما ذكر أن هناك مدارسا كبرى يلتحق بها من ينتهون من دراستهم في المرحلة الأولى بعد اجتيازهم الامتحان الذي يعقد لهم للالتحاق بها، وقد أشار إلى اهتمام الروس باللقطاء، وإيوائهم في دور مخصصة لهم، وتعليمهم مثل أبناء العامة، وأشار إلى أن هذا لا

يوجد في البلاد الإسلامية، كما أشار إلى انتشار المستشفيات التي تعالج الأمراض المختلفة ومنها الأمراض العقلية، كما تكلم عن إقبال الروس ومنهم الأغنياء على التعليم، وعن انتشار الصحف المختلفة اليومية منها والشهرية عندهم، سواء منها الروسية أو التي تأتي من خارجها مثل الفرنسية والنمساوية٤٣، وجعل الفصل التاسع (في سكنى الروس ومعيشتهم ومركوبهم) للحديث عن بناء منازلهم من الحجر والخشب، وتعدد طوابقها وغرفها من الداخل، ووصف هذه الغرف وما يزينها من صور معلقة على جدرانها، وما يحتويها من أثاث وقناديل وغيرها، وأن هذه المنازل منها ما يملكه صاحبه، ومنها ما يستأجره، كما تكلم عن طريقتهم في تناول الطعام واستخدام أدوات لذلك، ومشربهم، واستخدامهم العربات في السفر وأيضا القطارات وعربات التزلج على الجليد٤٤، وخص الفصل العاشر(في لسان الفرس) بالحديث عن اللغة الروسية ومشابهتها للغة العربية في النحو والإعراب والأمثال والشعر، وأشار إلى وجوب أن يتنبه المترجم من لغة إلى أخرى، إلى ما يستحسن وما يستكره في اللغة التي يترجم إليها، وهى مسألة في غاية الأهمية، وضرب مثلا على ذلك(ومما ينبغي أن يتنبه له أن المترجم من لسان لابد أن يلاحظ ما يكون مقبولا في اللسان الآخر وإلا غير كما فعلت في الشعر الأخير، فإن الشاعر شبه في الأصل القامة بالنخلة الهندية، وهذا بديع في اللسان الروسي، مستهجن في العربي، فلذا غيرتُه إلى البان، والمؤدَّى واحد)٤٥.

الفصل الثاني (منهجه)

اعتمد الطنطاوي في كتابه على المنهج الوصفي التحليلي، الذي يقوم على وصف الظواهر والأحداث وصفا دقيقا وتحليلها تحليلا وافيا، والانتقال فيها من العام إلى الخاص، مستشهدا فيها بأبيات الشعر التي نظمها هو أوغيره، ومحاولا توثيق مشاهده، والمقارنة بينها وبين ما يشبهها في مصر، وما يختلف عنها ؛معتمدا في ذلك على تجربته الذاتية في الملاحظة، والمقابلات مع الآخرين، وينتمي النص إلى ما يسمى أدب الرحلات، ويقترب على حذر من دائرة المذكرات اليومية، لكنها مثلت لحظات البداية والاستعداد للسفر، حتى الوصول إلى بغيته النهائية في بطرسبرج؛ليتحول مرة أخرى بالسرد إلى وصف كل ما يتعلق بالبيئة التي سافر إليها، ولوجا بالسرد إلى استدعاء الخواص الفارقة للترجمة الذاتية التي تستولي فيها (الأنا) على زمام الحكى، وتستأثر بإنتاج الحدث، وتتحكم في بناء الشخوص وفقا لمعايشتها لها، ومن خلال رؤيتها الذاتية، وقد تجلى كل ذلك في سيطرة ضمير(الأنا) المتكلمة أو الفاعلة على الخطاب في مجمله. وبداية القراءة في هذا الكتاب تجعلنا في مواجهة مع المؤلف الذي يحكي عن رحلته إلى بلاد الروس بكل ما تحمله هذه الرحلة من مشاهد وأحداث، وبكل ما يسيطر على صاحبها من مشاعر الإعجاب والاندهاش بهذا السفر، وهو يهتم بإبراز كل تفاصيل الموقع، وطبيعة الأرض، والمناخ، وعادات وتقاليد الشعوب، وأنواع الفنون والموسيقى التي تنتشر بينهم، مما يجعل منهجه في الكتاب منهجا وصفيا تاريخيا، يهتم بسرد تاريخ الوقائع التي حدثت بين روسيامن جهة، واليونان وغيرها من البلدان من جهة أخرى، وكأنه يتمثل جهود المؤرخين السابقين عليه وينهج نهجهم، (اشتملت على منهج رواية الرحلة وجغرافية المكان والسكان، ونظام الحكم والملبس والملاهي - وخاصة التياتر والرقص-، والتربية والصحة والتعليم والنظافة، ويهتم بالوسائل الاثنوجرافية (موقع المدينة، ومناخها، وطبيعة تربتها، والطبقات التي تكونها خطوط الطول والعرض الآخذة بكروية الأرض والمناخ، وكذا المظاهر الحضارية المتمثلة في فروع المعرفة، وأسماء المعاهد).

وقد تميز نهجه في الكتاب بدقة العرض بحيث يطرد الكلام وتطرد مقدماته ونتائجه، والراوي أو المؤلف هو الشخصية الرئيسة في السرد وهى التي تتولى مهمة إنتاج السرد، وجميع الأشخاص الآخرين وقعت في إطار المروي عنه، بينما ظلت حياة المؤلف في بلاده قبل سفره تلح على النص من خلال تعليقاته ومقارنته بين النمطين العربي والروسي في مفارقة تجسد حالة الصدام الحضاري بين النمطين، ومحاولة الطرف الأول اللحاق بالطرف الآخر، والأخذ بأسباب النهضة، ويلاحظ أن هذا الصدام الذي ولد المفارقة قد ظهر جليا في مواقف بعينها جسدت عمق الهوة بين الطرفين ؛فهو يقف متسائلا عن وجود دور لرعاية الأطفال اللقطاء وتعليمهم تضمن لهم حياة كريمة في هذه البلاد، بينما لا توجد مثل هذه الدور في بلاد المسلمين الذين يمثل مبدأ التكافل الاجتماعي ركيزة مهمة من ركائز العقيدة في الإسلام عندهم (وكذلك للقطاء بيت فيه يربون،..... وهذا من الخيرات والمصالح، إذ اللقيط منبوذ لا كافل له، فمن لم يكفله بيت المال فمن كافله؟..... والعجب أنه إلى الآن لم يعمل بيت للقطاء

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

في ديار الإسلام مع تقدم التمدن واقتضاء الشريعة)٤٦، وهناك صورة أخرى تمثلت في طاعة الزوجات لأزواجهن وتضحيتهن بحياتهن عند وفاة الزوج (ونساء الصقلب كانوا في غاية الطاعة لأزواجهن، وبموتهم يحرقن أنفسهن بطيب القلب منهن)٤٧، ولم تقف المفارقة عند هذا الحد بل ظل الصدام مسيطرا على السرد إلى نهايته، فاستحال إلى أسئلة مضمرة في بنية النص العميقة امتلكت قدرا موسعا من الإسقاط الذي استطاع أن يستحضر هذه الأسئلة حول حالة التخلف عند المسلمين رغم وجود الإسلام فيهم، وتقدم هؤلاء مع غياب الإسلام عنهم، بل واحترام مقدسات الآخرين ومن بينهم المسلمين (ولهم اشتراء الأرض والعبيد الروسية إلا في اختلاف الدين ؛فيمنع دخول الروس في ملك المسلم، كما أن العبد المسلم يمنع شرعا دخوله في ملك النصراني ومخالف الدين)٤٨، (وقد تنبه القيصر إلى أن المسلمين لا يحبون التصوير الذي في النشانات المعطاة للمسلمين؛فأقام مقامها صورة النسر)٤٩، وربما جسدت أيضا حالة الاهتمام والرعاية للشعب من جانب القيصر (بطرس وخلفائه) في مقابلة حالة الإهمال وعدم الاكتراث من جانب الولاة السابقين لشعوبهم، (وذلك أنه ذهب أول نيسان إلى بيت خشب قديم منفرد وأمر بإحراقه فسارع الناس والعسكر بآلات الإطفاء، فسره اجتهادهم وغيرتهم، وقال للجماعة مبتسما ومنبسطا:هذا أول نيسان، ثم وضع لهم براميل خمر وبوزة لإزالة فزعهم، واجتثاث هلعهم)٥٠، وتزداد حدة المفارقة في تخليد الروس للنابهين من علمائهم بتماثيل أو غيرها بينما لا يحدث ذلك مع النابغين من علمائنا، بحجة مخالفة الدين في التصاوير وغيرها، مبرزا أهمية الاهتمام بهؤلاء العلماء بتخليدهم بآثار لا تعتمد على التماثيل تجنبا لمخالفة الشرع، بل بوسائل أخرى(والعادة ببناء آثارلحفظ ذكر الأشخاص النابغين الذين فعلوا شيئا عظيما خارجا عن العادة...فلم لا نعمل آثارلأسلافنا البارعين وآبائنا الفائقين ؟وليس لازما في الأثر صورة حتى يقال إنها محرمة، بل يمكن عمل الآثار بلا تصوير)٥١.

وتعرض في موضع آخر من كتابه لمفارقة جديدة تمثلت في انتشار الأمن في ربوع هذه البلدان رغم وجود الصحاري والغابات، في تصادم مع ما يحدث في بلادنا من فقدان الأمن لهؤلاء المسافرين (والليل كالنهار في السير، والصحو والغيم سيان، فلا مانع أبدا ولا خوف في هذه الطرق التي هى صحاري بلا أشجار مدة، ثم مملؤة بالغابات والأشجارالكثيرة، ويوجد في بعضها ذئاب وأرانب وحشية، وطالما تعجبت حين رأيت في هذه الطرق امرأة وحدها في عربة أو ماشية؛فحقيقة هذا من الأمن العجيب)٥٢.

وهو لا ينحاز كلية إلى ما رآه في هذه البلاد، بل أحيانا يشيرإلى بعض ما تتميز به بلادنا عنهم من أخلاق إسلامية محافظة تنهى عن كشف العورات، وتعتني بالنظافة الشخصية، والعامة (والعادة أن يستحم الناس معا، ويقلعون عرايا ولا يتفوطون.... وبالجملة ففرق بين حمامات هذه البلاد التي هي أوض من خشب أو حجر مدفأة، وبين حمامات مصر واسلامبول التي هى قصور حسنة البناء والتبليط والترخيم، وبها كل ما يحتاج إليه من فوط وتكييس وتصبين إلى غير ذلك)٥٣، إلا أن ما يلفت الانتباه في هذا الكتاب هو انتشار الألفاظ العامية فيه -على عادة كتاب عصره٥٤ -التي تصل في بعض الأحيان إلى حد الابتذال سواء في النثر أو الشعر على حد سواء؛ففي النثر(منهم من يشرب أربع كوبايات، ومنهم أكثر، وبعد شرب كل كوباية يتفسحون نحو ربع ساعة..... فقابلتني مديرتها بالبشاشة، وفرجتني على جميع أوض الدروس، وأوض الطعام، وأوض النوم.....)٥٥(وأما سفينة السفراء وأعضاء المحكمة فمكثت ثلاثة أيام بلياليها بسبب شدة الريح الشرقي وغشومية الرئيس المستعمل ولبخت في الخوص وتعوَّرت)٥٦

أما في الشعر:

أمرضتني عيونها

وهى إن تبغي شافية

مع هذا لسانها

قال لي اقعد بعافية٥٧

وهو يلجأ في كثير من الأحيان إلى الاستعانة بنوع من الشعر الشعبي العامي يسمى موالي٥٨، وقد أورده في أكثر من موضع:

يا ناس على شان أشوف الأهيف المكحول

سافرت اجريد ورحت أزمير واصتنبول

رأيت ملامح شكلهم في كل شئ مقبول

ما عندهم شى رزالة زى ما في مصر

علل على القلب لكن يلتقوا المعلول٥٩

وقد يلجأ إلى التخميس٦٠، وقد أورده في أكثر من موضع:

لما أردت إلى المعالي أرتقي

لم أخش من خطر السفار وأتقي

بل جبت فيه مغربا من مشرق

وركبت لجة بحر روم أزرق

من خطبه هيهات ما لي مشفق٦١

وتنتشر الحكم والأمثال في ثنايا الكتاب، فمن الأمثال:(والمنهل العذب كثير الزحام)٦٢، (ومعظم النار من مستصغر الشرر)٦٣، (إن السفينة لا تجري على اليبس)٦٤(وكان أبخل من تموز في المطر)٦٥

وقد تعرض لترجمة بعض الأشعارمن الروسية إلى العربية، (قلت مترجما في الغزل:

الزهر إن جد لا ينمو بغير هوا

والقلب إن شب لا يحيى بغير هوى)٦٦

والكتاب يميل في مجمله إلى النهج التعليمي الذي غلب على كتب الأزهر في ذلك الوقت، فهو يبرزالأنواع البلاغية ويقوم بشرحها وتوضيحها (فقلت متغزلا مشيرا لقصة زليخا مع يوسف لمَّا غلقت عليه الأبواب وقالت له "هيت لك"، وهذا يسمى في علم البديع التلميح:

وافيتها أزورها جنح الدياجي والحلك

فغلقت أبوابها ولم تقل لي هيت لك)٦٧

من قوله تعالى (وغلقت الأبواب وقالت هيت لك)٦٨

وقوله في موضع آخر:

(وقد حلا فيه المات الأحمر

وما رثى لي العدو الأزرق

فيه تلميح لقول الحريري:فهذا أغبر العيش الأخضر)٦٩

كما يلاحظ كثرة استخدام المؤلف للألفاظ العامية المصرية في كتابه(كان حريصا على علاقته بوطنه النائي وبقيت آثار هذه العلاقات ظاهرة في مؤلّفه عن اللهجة المصرية حيث توجد بعض رسائله ورسائل أصحابه المصريين كأنموذج للأسلوب)٧٠، وربما يرجع ذلك أيضا إلى انتشار الكتابة بالعامية المصرية عند كبار كتاب هذا العصر.

الفصل الثالث

أساليبه وصوره البلاغية

اعتمد المؤلف السرد المباشر ورصد الواقع عبر ملاحظاته ومقابلاته، وقد صدَّر كتابه بعبارات مسجوعة في التمهيد والمقدمة، ثم تحول إلى الكتابة المرسلة، والكتاب يميل إلى النهج التعليمي الذي يقوم على الإشارة إلى الأنواع البلاغية التي انتشرت في ثنايا الكتاب، وشرح بلاغتها، ونوعها البلاغي في كثير من الأحيان.

ومن أولى البنى البلاغية التي تعرض لها المؤلف وأكثرها ورودا في كتابه بنية التشبيه، عبر من خلالهاعن بيئته التي هاجر إليها بكل ملامحها، رغم أن صورة بلاده ظلت حاضرة عنده، وظهرت في مقارناته التي عقدها بين بيئته الشرقية في مصر وبيئة روسيا، وقد تجلى أولى تشبيهاته في الإشادة بفائدة الاغتراب، وضرورة أن يسعى الإنسان للتعرف على علوم وثقافات الآخرين، وكأنه يجد لنفسه دافعا إلى السفر وتشجيعا لها:

ومن لم يغترب في كل قطر

فكالطفل الذي في حجر أمه

تراه ساذجا لا علم يدري

ويبكي حيث فارقها لهمه٧١

وأول ما يواجهه في هذه التجربة هوعالم الألوان، التي اصطبغ بها كل ما أحاط به في الماء وأيضا في السماء، بحيث امتزج الاثنان في لون واحد وغاب دال الأرض؛فارتفع دال البحر ليتحول إلى مفردة من مفردات السماء ؛لتحلق به في عنان هذه السماء، وليعبر من خلال التشبيه عن غلبة اللون الأزرق:

والبحر أزرق كالسماء ولا نرى

أرضا كأنا في طباق السماء٧٢

ويمتد دال اللون الأزرق لينسحب على عيون من يسكنون في هذه المناطق:

للروم بحر أزرق

كعيونهم لي مقلق٧٣

ويكتسب هذا اللون قوته وسحره حين يمتد إلى عيون النساء فتصبح كالسيوف في حدتها وتأثيرها:

كم من حسان أبصرت

عيني وكم خل ألوف

لا تنكروا زرق العيو

ن هكذا نصل السيوف٧٤

وللمرأة نصيب كبير من تشبيهات الطنطاوي لا يقف عند عيونها بل يمتد إلى كل ملامحها، ومن هذه الملامح ثغرها:

فتاة من الإفرنج تنطق بالعرب

فتطربني ألفاظها غاية الطرب

لباقة ألفاظ وسحر لواحظ

وثغر كنظم الدر أحلى من الضرب٧٥

ومنها الوجه الذي يشبه المغناطيس في قوة جذب المحبين إليه تلين معه القلوب القاسية:

ما حيلتي في حب غانية

قد حملتني في الهوى وصبا

الوجه مغناطيس أنفسنا

لا غرو أن قلبي الحديد صبا٧٦

وقد يعبر التشبيه التمثيلي عن إحجام المحبوبه عن وصال المحبوب مثلما يضن شهر يوليو بالأمطار:

فرأيت الحبيب شحَّ بوصل

مثل ما شحَّ بالحيا تموز٧٧

وقد يأتي التشبيه المقلوب ممتزجا

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

بالجناس المضارع بين (يروح، يلوح) للمبالغة في وصف جمال المرأة التي تحولت إلى مقارنة البدر بها:

والبدر مثل جميلة تاهت على
عشاقها فترقبوا الميعادا
فيروح تارة تحت سحب براقع
ويلوح طورا حينا إذ عادا٧٨

ولم يكن النيل بعيدا عن تشبيهات الطنطاوي فهو يراه دائما في كل نهر يصادفه، وخاصة نهر النيفا حين يعقد بينهما مقارنة تصب لصالح النيل، يقول:

النيل عذب سائغ
وذا كطود منقعر٧٩

كما كانت لبرودة الطقس والثلج المتساقط في هذه البلاد نصيب من أشعاره، حيث يقول:

انظر لأسنمة السط
ح وقد تغطت بالجليد
كبرادة من فضة
نثرت على لوح حديد٨٠

وقد يأتي التشبيه ضمنيا ليؤكد من خلاله أن كل نابه متفرد في نبوغه الذي لا يصل إليه أحد حتى بنيه، مدللا على ذلك بأن الرماد هى نتاج النار، ولذا لا عجب أن ينجب القيصر ابنا لا يصلح للقيادة مثل أبيه:

إذا أظهر الدهر شخصا لبيبا
فكن في ابنه سئ الاعتقاد
فلست ترى من نجيب نجيبا
وهل تلد النار إلا الرماد ٨١

وتعد الاستعارة إحدى البنى الأثيرة لدى الطنطاوي في كتابه، وتركزت بعض هذه الاستعارات في نهر النيل والمقارنة بينه وبين نهر النيفا، فهو يبدؤها بغضب النيل عليه نتيجة لسفره وابتعاده عنه بينما يقف النيفا على الجانب الآخر متشوقا للقائه:

النيل غضبان عليَّ كأنه
لصحبتي لا يرتضي بتنائي
وأرى الأجاج الملح عذب سيره
فكأنه متشوق للقائي٨٢

وقد تستدعي الاستعارة معها اقتباسا لصورة تراثية يظهر فيها المحب العاشق الذي يبكي لفراق محبوبته لتمتزج بالحزن الشديد لدي نهر النيفا لتحوله إلى جليد، وهو في كل ذلك يداعب ذكرياته التي تلح عليه في مخيلته وتعبر عن مدى ارتباطه بوطنه رغم غربته، يقول:

على ظاهر النيفا جليد تراكمت
جنادله ما بين مرغ ومزبد
فها هو يبكي رعدة وترى الورى
يقولون لا تهلك أسى وتجلد٨٣

وقد اقتبس الشطر الأخير في البيت الثاني من معلقة امرئ القيس:

وقوفا بها صحبي على مطيهم
يقولون لا تهلك أسى وتجلد٨٤

بل إن كلمة تجلد مع دلالتها على الصبر فيها تورية بالجليد، ومن ثم مزج الطنطاوي كل هذه الصور ليحشد طاقة تصويرية مكثفة تبرز الصورة كاملة وتوضحها، وقد تظهر صورة المحبوبة في موضع آخر من كتابه، مفتتنا بجمالها ومعبرا عن دقة ملامحها:

ظلم الردف خصرها مثل ما قد
ظلمتني ولم تجد بوصال٨٥

وتارة تأتي الشدائد لتسيطر عليه وتصيبه بالحزن:

تعتريني الخطوب منكدرات
تتوالى وتارة في نجوم٨٦

وهذه الشدائد تاتي إليه بكل عجيبة، وقد عبر عن ذلك بقول أحد الشعراء:

والليالي من الزمان حبلى
مثقلات يلدن كل عجيبة ٨٧

وتمثل التورية إحدى البنى الأثيرة لدى المؤلف، وقد أشارإليها في أكثرمن موضع في الكتاب، بل بينها في كثير من الأحيان:

إن جزت مملكة الفرنج تجد بها
ما تشتهيه النفس من أمنية
لكنما العرب في طرقاتها
مستغرب يبكي على العربية

فيه تورية باللغة العربية)٨٨ لفظة العربية تحتمل معنى العربة التي كانت مستعملة في التنقل في هذه البلاد، وهو المعنى الظاهر، أما المعنى المورى عنه فهو اللغة العربية، وفي موضع آخر:

يا حبيبي بمصر مالك تنسي
ولديك المحب غادر نفسا
سافر الجسم عنك في سفن النا
ر وما في الوصال قطع مرسا

تورية بشهر مارس)٨٩ فالمعنى الظاهر مرسى السفن، بينما المورى عنه هو شهر مارس، (وكذلك في أيام الشتاء لابد من لبس الفراء خصوصا للغرباء لقساوة البرد، وقلت موريا:

واصلتني يا بدر حتى كان لي
ببلوغ وصلك في الدجا آمال
لم تفتري في موعدي فأجابني
الافتراء ببتربورغ حلال)٩٠

فجاء المعنى الظاهر ليدل على معنى التجني والمبالغة فيه، بينما المعنى المورى عنه هو لبس الفراء لشدة البرد، ويمكن القول بأن بني التورية جاءت سطحية يسهل الاهتداء إلى مرادها.

ومن البنى التي أوردها الطنطاوي في كتابه الكناية، التي وظفها للإشادة

بالخليفة العثماني تارة:

لازال للإسلام أشرف كعبة

لم تخل يوما من طواف وفود٩١

مكنيا بأشرف كعبةعن السلطان العثماني عبد المجيد، الذي خلع عليه أيضا حسن إدارة الخلافة وبراعته فيها، مكنيا عنه بالطبيب لعثراتها، قائلا:

طبيب بأدواء الخلافة عالم

لديه دواء الجبر ليس بعيد٩٢

وتارة أخري يشيد بوالي مصر محمد على، الذى كنى عنه بعزيز مصر:

ودعاني عزيز مصر إليه

وحباني بالعز والتكريم٩٣

وقد تعبر الكناية حاجز الجنس لتبرز حنين الطنطاوي إلى وطنه وأهله، وتحول المرأة الروسية إلى مصرية في ملامح عيونها وشعرها:

مصرية بعيونها وشعورها

فبها ترى مصر بذياك الحمى٩٤

ثم يأتي علم البديع من خلال بنية الاقتباس ليشكل معلما رئيسا في كتابه يتكئ فيه على النص القرآني كأحد مكونات هذه البنية التي تعمد إلى سبر أغوار النص في إبرازالأفكار وتوضيحها، (وزى النساء في الأسواق لا حرج فيها وكل حزب بما لديهم فرحون)٩٥ مقتبس من قوله تعالى:(فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون)٩٦، (لأن القوازق بأمر ابراكسين حرقوا هذه القرى ليسدوا على العدو طريق الخلاص، ففر ولات حين مناص، وأخذ الروس يقتلون السويد ويقولون لنار غضبهم:هل امتلأت؟وتقول:هل من مزيد؟)٩٧فقد اتكئ على قوله تعالى (كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص)٩٨ثم قوله تعالى:(يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد)٩٩، للدلالة على شدة بطش الروس بجنود السويد وتنكيلهم بهم، وفي الشعر يعتمد أيضا علي الاقتباس القرآني من قصة سيدنا يوسف عليه السلام١٠٠، للدلالة على أن قد حيل بينه وبين دخول الإسكندرية بسبب غلق أبوابها ؛كما حيل بين هروب يوسف ونجاته من امرأة العزيز بسبب غلقها للأبواب، غير أن أسوار الإسكندرية لم تسمح له بدخولها بينما دعت امرأة العزيزيوسف إليها، مصرحا بأن هذا الحدث فيه تلميح:

وافيتها أزورها جنح الدياجي والحلك

فغلقت أبوابها ولم تقل لي هيت لك١٠١

ويقول في تفضيل النيل على نهر النيفا:

هيا انظروا ما أصاب نيفا

حتى غدا أصفر الإهاب

النيل ماء وذا تراب

والماء يعلو على التراب١٠٢

فهوا يتكئ على بيتين نسبا إلى بشار ابن برد يقول فيهما:

إبليس خير من أبيكم آدم

فتنبهوا يا معشر الفجار

النار عنصره وآدم طينه

والطين لا يسمو سمو النار١٠٣

وظلت أبيات امرؤ القيس تلح عليه في حديثه عن تجلد نهر النيفا:

فها هو يبكي رعدة وترى الورى

يقولون لا تهلك أسى وتجلد١٠٤

مقتبس من قول امرئ القيس:

وقوفا بها صحبي على مطيهم

يقولون لا تهلك أسى وتجلد١٠٥

وتتعدد البنى البديعية في كتابه، فنراه يورد حسن التعليل ليعبر عن مدي حفاوة الاستقبال والترحاب به في هذه البلاد:

فرحت بمقدمي البلاد وأهلها

رفعوا برانطهم لأجل سلامي

حتى السما حيّت ببرق ضاحك

والأرض رشّت ساعة قدّامي١٠٦

فقد امتزجت الاستعارة في البيتين بالطباق بين السماء والأرض لتكثيف الحدث والتعبير عن شدة الفرح التي أصابت أهل هذه البلاد لمقدمه، وتأتي بنية الطباق لتحقق بناء تكراريا يهدف إلى تكامل المعنى، (والتكرار يتحقق بالنظر إلى عملية الحضور والغياب ؛فالطرفان الحاضران على مستوى السطح متقابلان، لكنهما يستدعيان طرفين غائبين لإكمال الدائرة التكرارية)١٠٧، يتجلى ذلك في وصف فتاة روسية تتكلم العربية باللهجة المصرية:

أمرضتني عيونها

وهى إن تبغ شافية

مع هذا لسانها

قال لي اقعد بعافية١٠٨

فحضور المعني على مستوى السطح يستدعي التقابل بين المرض والشفاء بينما تؤول إلى التوافق في امتلاك هذه العيون للشفاء والمرض معا، للدلالة على قوة تأثيرها فيه وسيطرتها عليه، ويستمر التوافق في بنية طباق السلب والإيجاب على مستوى العمق حين يتحول التقابل في مستوى السطح بين (ما رحمته – رحمته) إلى التوافق وغلبة الطرف الأول (ما رحمته) على نفسها وعلى الغريب في آن واحد، يقول الطنطاوي:

هو بعض منها وما رحمته

كيف يرجو الغريب رحمة قالِ١٠٩

وقد يحدث العكس فيأتي التوافق على

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

مستوى السطح، بينما يؤول إلى التخالف في المستوى العميق وذلك في بنية الجناس ولذاعدها عبدالقاهر من أبنية التكرار والإعادة١١٠، يقول الطنطاوي مادحا السلطان عبد المجيد:

حمت بالظبى هيفاء بنت عيد

خدود ورود عن ورود عيد١١١

فكلمتى (ورود – ورود) تحقق لهما التوافق الصياغي على مستوى السطح بينما آلا إلى تخالف المعني في مستوى العمق؛ فالأولى تعني الورد بينما الثانية تعبرعن مجئ العيد، وهو في كل ذلك يعبر عن حرارة الترحاب به بعد أن استطاع جذب المتلقي بحاسة السمع التي استطاعت تتبع إيقاع الأحرف ومدى توافقها، وحاسة البصر التي استطاعت تتبع رسم الحروف وما بينها من تخالف

الخاتمة

مثّل الشيخ محمد عياد الطنطاوي المولود في إحدى القرى التابعة لمدينة طنطا (١٨١٠-١٨٦١م) (١٢٢٥-١٢٧٨ه) جسرا مهما من جسور الثقافة التي امتدت لتصل بين الشرق والغرب، وتسترفد ثقافة الغرب ليفيد منها الشرق، ويعد كتابه (تحفة الأذكياء بأخبار بلاد الروسيا) معلما مهما يتناول كل ما يتعلق بأوجه الحياة الاجتماعية، والسياسية، والعسكرية، في روسيا في القرن التاسع عشر، ولهذا يمثل هذا الكتاب أهمية كبيرة بالنسبة للآداب العربية، حيث يضيف للمكتبة العربية مؤلفا في أدب الرحلات إلى بقعة من العالم تمثل اليوم إحدى القوى الكبرى، ومهم بالنسبة للروس حيث يعكس لهم نظرة عربي تمكن من التغلغل في حياتهم، ومعيشتهم أكثر من عشرين عاما، وهو أول كتاب من نوعه يصدره عالم من علماء المشرقيين، ولم تفرد له دراسة مستقلة، وإنما جاء تناوله ضمن مؤلفات الشيخ الطنطاوي وجهوده العلمية، ومن هنا تبرز أهمية هذا الكتاب، وإفراده بالدراسة التحليلية النقدية لبيان أهميته، وكيفية تناوله للقضايا والموضوعات البلاغية، وقد تم تقسيم البحث إلى مقدمة وثلاثة فصول، تناولت في المقدمة الأسس المنهجية للبحث من حيث بيان أهمية الموضوع، الأهداف، أسباب الاختيار، المنهج المختار، مكونات البحث، ثم تناولت في الفصل الأول التعريف بالمؤلف، والتعريف بالكتاب ومنهجه فيه، وفي الفصل الثاني دراسة تحليلية له ولأهم موضوعاته، وفي الفصل الثالث تحليل الأساليب البلاغية والصور البيانية في الكتاب، وجاءت الخاتمة لتتناول أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة، ومن أهمها:

- يعد الشيخ محمد سعد الطنطاوي علما مهما من أعلام المشرقيين الذين كان لهم أثر بالغ في تعليم العربية، والتعريف بآدابها في روسيا في القرن التاسع عشرالميلادي.
- يعد كتاب تحفة الأذكياء بأخباربلاد الروسيا وثيقة مهمة تتناول أوجه الحياة المختلفة في هذا البلد من حيث تضاريسه، ومناخه، وطبائع البشرفيه، وعاداتهم، وتقاليدهم، وديانـاتهم في القرن الثالث عشر الهجري.
- مثلت المفارقة محورا رئيسا في إبراز أوجه التناقض بين بيئة المؤلف الشرقية وبين والغرب ممثلا في روسيا، والتي آلت إلى التصادم الحاد في كثير منها.
- تعرض المؤلف في كتابه لبعض القضايا البلاغية وشرحها في كثير من الأحيان، وكان من أكثر البنى البلاغية ورودا في الكتاب، التشبيه، والاستعارة، والكناية، والاقتباس، والجناس.
- حفل الكتاب بأشعار كثيرة للمؤلف ولغيره، مما يدل على موهبته الشعرية، كما أشار إلى أنواع من الشعر العامي مثل الموالي، والتخميس.

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

الهوامش

١ الشيخ محمد عياد الطنطاوي: أحمد تيمور- مجلة المجمع العلمي العربي -سوريا – دمشق – ١٣٤٢ه / م ١٩٢٤م:٤(٩/ ٣٨٧).

٢ حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوي:إغناطيوس كراتشكوفسكي – ترجمة كلثوم نصر عودة- القاهرة – المركز القومي للترجمة – سلسلة ميراث الترجمة – العدد ١٧٧٢- ط - ٢٠١٣م.

٣ الطنطاوي نسبة إلى طنطا في لغة العامة وهى طندتا أكبر مدينة بمصر بعد القاهرة والإسكندرية، راجع الشيخ محمد عياد الطنطاوي::٤(٩/ ٣٨٧).

٤ رحلة الشيخ الطنطاوي إلى البلاد الروسية ١٨٤٠- ١٨٥٠ المسماة بتحفة الأذكياء بأخبار بلاد الروسيا: تقديم محمد عيسى صالحية-الأردن – عمان – دار البشيرللنشر – ط – ١٩٩٢م:١٠.

٥ من تراث الشيخ محمد عياد الطنطاوي: تقديم د. محمد حسين الشافعي – القاهرة – دار أنباء روسيا – ط – ٢٠١٣م:٧، ٨.

٦ نفسه: ٩.

٧ نفسه: ٨.

٨ نفسه: ١٠.

٩ حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوي:: ٢٧.

١٠ من تراث الشيخ عياد الطنطاوي: ١٠.

١١ نفسه: ١١.

١٢ حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوي: ١١٧.

١٣ نفسه: ١١٨

١٤ الشيخ محمد عياد الطنطاوي: محمد أمين حسونة -مجلة الثقافة – القاهرة -السنة الثامنة – العدد ٣٨١-١٣٦٥ه /١٩٤٦م: ٢٣.

١٥ الشيخ محمد عياد الطنطاوي: أغناطيوس كراتشكوفسكي – مجلة المجمع العربي – سوريا – دمشق – ٤(١٢/ ٥٦٤).

١٦ حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوي: ١٤٠.

١٧ كتاب الأعلام:خيرالدين الزركلي-لبنان – بيروت – دار العلم للملايين – ط١٥ – ٢٠٠٢ م: ٦/ ٣٢٠

١٨ حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوي: ٢٨.

١٩ الشيخ محمد عياد الطنطاوي لمحمد أمين حسونة: ٢٣.

٢٠ من تراث الشيخ الطنطاوي: ١٠.

٢١ الشيخ محمد عياد الطنطاوي: ٢١.

٢٢ من تراث الشيخ الطنطاوي: ٢٧.

٢٣ حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوي:٢٦.

٢٤ لسان العرب لابن منظور: لبنان – بيروت –دار صادر- ط ٣ – ١٤١٤ه/ ١٩٩٤م: مادة تحف.

٢٥ الشيخ محمد عياد الطنطاوي لأحمد تيمور: ٤(٩/ ٣٨٨).

٢٦ التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة: شمس الدين محمد بن عبدالرحمن السخاوي(٩٠٢ه) – لبنان- بيروت – دار الكتب العلمية - ط - ١٤١٤ه/ ١٩٩٣م.

٢٧ تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة:القاضي ناصر الدين عبدالله بن عمرالبيضاوي (ت٦٨٥ه) – تحقيق لجنة بإشراف نور الدين طالب – الكويت – وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية – ط- ١٤٣٣ه / ٢٠١٢ م.

٢٨ تحفة الحكام في نكت العقود والأحكام: محمد أبو بكر بن عاصم القيسي الغرناطي(ت ٨٢٩ه) – تحقيق محمد عبدالسلام محمد – القاهرة – دار الآفاق العربية – ط- ١٤٣٢ه / ٢٠١٢م.

٢٩ بلاغة السرد: د محمد عبدالمطلب – القاهرة – الهيئة العامة لقصور الثقافة – ط – ٢٠٠١: ١٨.

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

٣٠ تحفة الأذكياء: ٥٠

٣١ نفسه: ٥١

٣٢ نفسه: ٥٢

٣٣ نفسه: ٥٥

٣٤ نفسه: ٥٥

٣٥ نفسه: ١٠٠

٣٦ نفسه: ١٨٥

٣٧ نفسه: ١٩٠

٣٨ نفسه: ١٩٦

٣٩ نفسه: ١٩٩

٤٠ نفسه: ٢٠١

٤١ نفسه: ٢٠٩

٤٢ نفسه: ٢٠٥

٤٣ نفسه: ٢١٦

٤٤ نفسه: ٢١٩

٤٥ نفسه: ٢٢٤

٤٦ نفسه: ٢١٧

٤٧ نفسه: ١٠٠

٤٨ نفسه: ١٨٦

٤٩ نفسه: ١٨٨

٥٠ تحفة الأذكياء: ١٦٣

٥١ نفسه: ٧٧

٥٢ نفسه: ٨٦

٥٣ نفسه:٩٥

٥٤ راجع النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: جمال الدين يوسف بن تغربردي الأتابكي – القاهرة –وزارة الثقلفة – ط-١٣٨٣ / ١٩٦٣. صبح الأعشى في كتابة الإنشاء – أحمد بن على القلقشندي (ت٨٢١ه)- لبنان بيروت – دار الكتب العلمية – ط – د.ت.

٥٥ تحفة الأذكياء: ٧٩

٥٦ نفسه: ١٥٢

٥٧ نفسه: ٨١

٥٨ لون من النظم، قيل ابتدعه أهل واسط، وقيل بعض أشياع البرامكة وأتباعهم بعد نكبتهم؛ فقد حرم عليهم الرشيد رثاءهم باللغة الفصحى؛فراحو يرثونهم وينوحون عليهم بلغة غير معربة أى بما يشبه العامية، وينهون مقاطعهم بعبارة: (يا مواليا !)؛فعرف هذا اللون (بالمواليا)، وقيل بل سبب التسمية موالاة قوافيه بعضها بعضا. راجع فن التقطيع الشعري والقافية: د صفاء خلوصي -العراق – بغداد – مكتبة المثنى – ط ٥– ١٩٧٧م: ٣٤٤

٥٩ تحفة الأذكياء: ٦٩

٦٠ التخميس:هو أن يأخذ االشاعر بيتا لسواه ، فيجعل صدره بعد ثلاثة أشطر ملائمة له في الوزن والقافية (أي يجعله عجُز بيت ثانٍ) ، ثم يأتي بعجز

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

ذلك البيت بعد البيتين فيحصل على خمسة أشطر، و من هنا جاءت التسمية ب (التخميس) راجع العمدة في محاسن الشعروآدابه لابن رشيق القيرواني:تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد – لبنان – بيروت – دار الجيل – ط٥ – ١٤٠١ه / ١٩٨١م: ٣٤٣.

٦١ تحفة الأذكياء: ٦١

٦٢ نفسه: ٧٥

٦٣ نفسه: ١٦٩

٦٤ نفسه: ١٧٠

٦٥ نفسه: ١١٤

٦٦ نفسه: ٢٢٣

٦٧ نفسه: ٥٦

٦٨ سورة يوسف: ٢٣

٦٩ تحفة الأذكياء: ٦١

٧٠ حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوي:٦٤

٧١ تحفة الأذكياء: ٤٩

٧٢ نفسه: ٥٩

٧٣ نفسه: ٦١

٧٤ نفسه: ٩٥

٧٥ نفسه: ٨١

٧٦ نفسه: ٩٢

٧٧ نفسه: ١١٤

٧٨ نفسه: ٧٧

٧٩ نفسه: ١١٨

٨٠ نفسه: ١١٤

٨١ نفسه: ١٥٨

٨٢ نفسه: ٥٩

٨٣ نفسه: ١٠٩

٨٤ ديوان طرفة بن العبد: ٢٥

٨٥ نفسه:٨١

٨٦ نفسه:٥٨

٨٧ نفسه: ١١٨

٨٨ نفسه: ٨٠

٨٩ نفسه: ٨٣

٩٠ نفسه: ١٩٠

٩١ نفسه: ٥٢

٩٢ نفسه: ٥٢

٩٣ نفسه: ٥٨

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

٩٤ نفسه: ٢٠٨

٩٥ نفسه: ٦٩

٩٦ سورة المؤمن:الآية ٥٣

٩٧ تحفة الأذكياء:١٤١

٩٨ سورة ص: الآية ٣

٩٩ سورة ق:الآية ٣٠

١٠٠ سورة يوسف: ٢٣

١٠١ تحفة الأذكياء:٥٧

١٠٢ نفسه: ١١٧

١٠٣ ديوان بشار بن برد: جمعه وشرحه محمد الطاهر بن عاشور- الجزائر-وزارة الثقافة الجزائرية – ط – ٢٠٠٧: ١/ ٣٦.

١٠٤ تحفة الأذكياء: ١٠٩

١٠٥ ديوان طرفة بن العبد: شرح عبدالرحمن المصطاوي – لبنان– بيروت - دار المعرفة – ط – ١٤٢٤ه / ٢٠٠٣م: ٢٥.

١٠٦ تحفة الأذكياء: ٨٧

١٠٧ البلاغة العربية قراءة أخرى: د.محمد عبدالمطلب - القاهرة - الشركة المصرية العالمية للنشر(لونجمان) - ط -١٩٩٧: ٣٥٦.

١٠٨ تجفة الأذكياء:٨١

تحفة الأذكياء: ٨١ ١٠٩

١١٠ أسرار البلاغة: عبدالقاهر الجرجاني – قراءة محمود محمد شاكر- القاهرة – مكتبة الخانجي- ط – ١٩٨٤: ١٢

١١١ تحفة الأذكياء: ٥٢.

ثبت المصادر والمراجع

- أسرار البلاغة: عبدالقاهر الجرجاني – قراءة محمود محمد شاكر- القاهرة – مكتبة الخانجي- ط – ١٩٨٤.

- بلاغة السرد: د محمد عبدالمطلب – القاهرة – الهيئة العامة لقصور الثقافة – ط – ٢٠٠١.

- البلاغة العربية قراءة أخرى: د.محمد عبدالمطلب - القاهرة - الشركة المصرية العالمية للنشر(لونجمان) - ط -١٩٩٧

- تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة:القاضي ناصر الدين عبدالله بن عمرالبيضاوي (ت٦٨٥ه) – تحقيق لجنة بإشراف نور الدين طالب – الكويت – وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية – ط- ١٤٣٣ه / ٢٠١٢ م.

- تحفة الحكام في نكت العقود والأحكام: محمد أبو بكر بن عاصم القيسي الغرناطي(ت ٨٢٩ه) – تحقيق محمد عبدالسلام محمد – القاهرة – دار الآفاق العربية – ط- ١٤٣٢ه / ٢٠١٢م.

- التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة: شمس الدين محمد بن عبدالرحمن السخاوي(٩٠٢ه) – لبنان- بيروت – دار الكتب العلمية - ط - ١٤١٤ه/ ١٩٩٣م.

- حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوي:إغناطيوس كراتشكوفسكي – ترجمة كلثوم نصر عودة- القاهرة – المركز القومي للترجمة – سلسلة ميراث الترجمة – العدد ١٧٧٢- ط - ٢٠١٣م.

- ديوان بشار بن برد: جمعه وشرحه محمد الطاهر بن عاشور- الجزائر-وزارة الثقافة الجزائرية – ط – ٢٠٠٧.

- ديوان طرفة بن العبد: شرح عبدالرحمن المصطاوي – لبنان– بيروت - دار المعرفة – ط – ١٤٢٤ه / ٢٠٠٣م.

- رحلة الشيخ الطنطاوي إلى البلاد الروسية ١٨٤٠- ١٨٥٠ المسماة بتحفة الأذكياء بأخبار بلاد الروسيا: تقديم محمد عيسى صالحية-الأردن – عمان – دار البشيرللنشر – ط – ١٩٩٢م.

- صبح الأعشى في كتابة الإنشاء – أحمد بن على القلقشندي (ت٨٢١ه)- لبنان بيروت – دار الكتب العلمية – ط – د.ت.
- العمدة في محاسن الشعروآدابه لابن رشيق القيرواني:تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد – لبنان – بيروت – دار الجيل – ط٥ – ١٤٠١ه / ١٩٨١م.
- فن التقطيع الشعري والقافية: د صفاء خلوصي -العراق – بغداد – مكتبة المثنى – ط ٥– ١٩٧٧م.
- كتاب الأعلام:خيرالدين الزركلي-لبنان – بيروت – دار العلم للملايين – ط١٥ – ٢٠٠٢ م.
- لسان العرب لابن منظور: لبنان – بيروت –دار صادر- ط ٣ – ١٤١٤ه / ١٩٩٤م.
- من تراث الشيخ محمد عياد الطنطاوي: تقديم د. محمد حسين الشافعي – القاهرة – دار أنباء روسيا – ط – ٢٠١٣م.
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: جمال الدين يوسف بن تغربردي الأتابكي – القاهرة –وزارة الثقلفة – ط-١٣٨٣ / ١٩٦٣.

الدوريات

- الشيخ محمد عياد الطنطاوي: أحمد تيمور- مجلة المجمع العلمي العربي -سوريا – دمشق –المجلد الرابع- الجزء التاسع ١٣٤٢ه / م ١٩٢٤م.
- الشيخ محمد عياد الطنطاوي: أغناطيوس كراتشكوفسكي – مجلة المجمع العربي – سوريا – دمشق – المجلد الرابع – الجزء الثاني عشر- ١٣٤٢ه / م ١٩٢٤م.
- الشيخ محمد عياد الطنطاوي: محمد أمين حسونة -مجلة الثقافة – القاهرة -السنة الثامنة – العدد ٣٨١- ١٣٦٥ ه /١٩٤٦م.

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2